kitabiyat

Yazar Bilgileri
Author(s)

Dr. Öğr. Üyesi
Mamdouh FARRAG
Recep Tayyip Erdoğan Üniversitesi
İlahiyat Fakültesi
Arap Dili ve Belagati
mamdouh.farrag@erdogan.edu.tr
ORCID: 0000-0002-7521-0171

Kitap İncelemesi / Book Review

Künye Bilgisi / Copyright Information

Raûf Abbâs, *Meşeynâhâ Hutan*.

Mısır: Kütüb Arabiyye, 2005.

336 sayfa.

Anahtar Kelimeler / الكلمات المفتاحية

Otobiyografi / سيرة ذاتية
Raûf Abbâs / رؤوف عباس
İtiraflar / الاعترافات
Toplumsal Tarih / التاريخ الاجتماعي

Makale Tarihleri / History of Article

Geliş Tarihi/Received 10/11/2023

Kabul Tarihi/Accepted 25/12/2023

- Çalışmada çıkar çatışması bulunmamaktadır.

Atıf / Citation

Mamdouh FARRAG, "Raûf Abbâs. *Meşeynâhâ Hutan*. Kahire: Dârü'l-kütübi'l-Arabiyye, 2005", *Kitabiyat İlahiyat Araştırmaları İnceleme-Eleştiri Dergisi*, 1/1 (Aralık 2023), 17-29.

تعدّ السيرة الذاتية (Autobiography) واحدة من الأنواع الأدبية الأكثر التصاقًا بالذات، وقد عرفها جان ستاروبينسكي بأنها "هي سيرة حياة الشخص يكتبها بنفسه"، وقد واجه المصطلح إشكاليات كثيرة، بعضها متعلّقٌ بحدوده، والبعض الآخر متعلقٌ بتحديد تعريف جامع مانع له، والبعض الثالث متعلّق بعلاقة السيرة بالأجناس القريبة منها كالرواية والمذكرات واليوميات، وهي مسألة يمكن الرجوع إلي مزيد من التفصيل عنها ضمن سياق آخر. الشيء المهم أن العرب قديمًا عرفوا السيرة قبل الغرب، والأدلة على ذلك سيرة الملوك والوزراء المنقوشة على الجدران في المعابد المصرية القديمة، وإن كانت جاءت في صيغة الفخر بالأمجاد والإنجازات، وقد ذكر عباس محمود العقاد "أن الاعترافات (وهي ضرب من كتابات الذات) اشتهرت في الهياكل على عهد الحضارات البابليّة قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون، وكانت في حقيقتها ضربًا من من العلاج الجثماني الذي يتطلبه المريض من الطبيب" [1] ومع أسبقية الشعوب العربية في تدوين الذات، حيث يمكن التماس نماذج في التراجم في قصص القرآن، حيث أخبرنا القرآن عن الآخرين، وسرد لتفاصيل حياة الكثيرة من الأنبياء، فالأخبار عنهم يدخل هذه القصص في السيرة الغيرية أو التراجم، وقد وردت التراجم عند ياقوت الحموي الرومي في معجم الأدباء، في القرن السابع الهجري، حيث ذكر في مقدمة كتابه أن "كتاب أبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي يضم ثلاث وعشرين ترجمة" [2] وكما وردت السير أو التراجم صريحة في كتابات ابن خلدون "في رحلته شرقًا وغربًا" والإمام الغزالي في "المنقذ من الضلال"، وفي "الفتوحات المكية" لابن عربي، وهناك مَن اعتبر كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي "أقدم سيرة ذاتية سبقت ما كتبه الغرب"[3] وغيرها من كتابات كانت سبّاقة لما أنتجته المدونة الغربية، إلا أن التعرية الخالصّة أو الصدق العاري، كان أندر في مدونة السرد العربي باستثناء بعض الكتابات القليلة، ومن هذه الكتابات القليلة، سيرة رؤوف عباس التي صدرت بعنوان *مشيناها خطى* (كتاب الهلال، 2004) تعد واحدة من أجرأ السير العربية، في تقديمها للكثير من الاعترافات الشخصية، سواء على مستوى عائلته، أو على مستوى الوظيفة حيث قام بتفكيك منظومتي العائلة والتعليم، بجرأة لا مثيل لها، دون أن يتوقف عند أي اعتبارات، بل كان ممتثلاً لميثاق السير ذاتي ألا وهو الصدق الخالص / العاري، وهو ما جعله (أي رؤوف

---

[1] عباس محمود العقاد: أنا، دار نهضة مصر، ط 3، 2005، ص 167.

[2] ياقوت الهموي، *معجم الأدباء*، ج 1، ط فريد الرفاعي، دار المأمون، 1936، ص 62.

[3] الطاهر أحمد مكي، *مقدمة طوق الحمامة*، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2023، ص9 .

عباس) وسيرته في مرمى النيران ممن تعرضت لهم بالحديث المباشر أو غير المباشر، ولم يكن له في تفكيكه – وخاصة في التعليم- سوى هدف وحيد هو الإصلاح وفقط، وهو ما جعله غير عابئ بما سوف تثيره اعترافاته من موجة اعتراضات، ورفض لما جاء فيها، وهو ما تحقّق بعد صدورها فقد أثارت لغطًا شديدًا، فشن عبد العظيم رمضان – على سبيل المثال – هجومًا شرسًا، مجردًا الرجل من علميته، ونزاهته، بل اتهمه بالكذب.

الشر هنا شران، شر بالمعني الحقيقي، حيث المعاناة التي عاناها الطفل مِن جَدته، وما قامت به من إذلال له بعد أن تركه والده معها، فكانت تمارس عليه السخرة والعنف في آن واحد، فكانت تمنعه من الخروج من الغرفة محدودة المساحة إلى الشارع" وهو ما جعله محرومًا من "أن يتمتع بما يتمتع به أترابه من حرية اللعب إلا بعد التحاقه بالمدرسة"(*مشيناها خطى*، ص 16)، ولم تكن معاملتها معاملتها السيئة تقتصر على حصاره ومضايقته بالدعاء على أمه بأن "يحرق قلبها على أولادها"، وإنما كانت تتفنن في طلب أمور لا غرض من وراءها سوى إرهاقه انتقامًا من أمه في شخصه "فلا ترتاح إلا إذا أرسلته إلى حقول منية السيرج ليقطع المسافة في ساعتين ذهابًا وإيابًا ليشتري من هناك بخمسة مليمات الملوخية والطماطم، ويحصل على الفجل والجرير (فوق البيعة) " وإذا احتاجت إلى شراء الخبز كانت ترسله إلى "مخبز يقع على مسيرة ساعة ذهابًا وإيابًا، برغم توفر الخبز عند بقال الحي". كما كانت تقتر في طعامه وتبخل عليه بالطعام وخصوصًا اللحم، وتبرر امتناعها عن إعطائه وجبة العشاء بأنها "مضرة ولا تنفعه لأنه صغير، وتناول العشاء قبل النوم يؤثر على قدرته على الفهم".

تعاملت الجدة معه على أنه عدو، أو شرٌّ يجب التخلّص منه، فلم يلقَ منها إلا معاملة سيئة، واحتقارًا له ولأمه، ولم ينجُ من هذا الشر إلا بعد أن أفشتِ الأم لوالده سوءَ معاملة جدته له، فاضطر إلى نقله إلى مدرسة قريبة من عمله "مدرسة طوخ الثانوية".

حالة الفقر المزري الذي عاشه في طفولته، جعلته يبدو عصاميًّا، فبسبب هذا الفقر كاد أن يُحرم من استكمال تعليمه، لولا تدخّل القدر في كثير من مراحل حياته التعليميّة، لكن خلال هذه المراحل، وما عاشه من بؤس وحرمان، كانت نظرته انتقادية للتعليم والمعلمين، فمنذ التحاقه بالكتاب نفر من طريقة التدريس، ووسائل التعليم التي انتهجها المعلمون، لا لأنها كانت تقوم أساسًا على العقاب المفرط، ولكن لأنها لم يكن غرضها تنمية مراكز الإبداع والفكر، كانت قائمة على الحفظ والتلقين، ففي إحدى مواجهاته مع أبيه، بسبب شكوى الشيخ الذي أرسله إليه ليحفظ

القرآن، أنه لا يستطيع أن يحفظ ما لا يفهمه، وهو ما كان عقابه وخيمًا عند الشيخ الذي اعتبر هذا "جدالاً في كلام الله"

كان الفقر عائقًا له ليس في التعليم، الذي جاءت ثورة يوليو الإصلاحية منحازة للفقراء فأقرت نظام مكتب التنسيق لضمان عدالة توزيع الطلاب على الجامعات، بعد أن كان القبول في الفترة الملكية مرهونًا بالوساطة والمحسوبية، كان أيضًا عائقًا في الحصول على فرصة عمل، فبعد أن حصل على الثانوية، قرر الأب اكتفاءها بما حصل عليه، وقد آن الأوان بأن يؤدي "دوره في مساعدة والده على تربية إخوته حتى يبلغوا ما بلغ" (*مشيناها خطى*، ص 27)، فمرتب والده الضئيل لا يكفي لتوفير مستلزمات الحياة الضروروية، لأسرة كبيرة العدد، فللحصول على فرصة عمل كان يجب عليه أن يحصل على شهادة الجنسيّة المصريّة وحسن سير وسلوك، وهاتان الشهادتان تتطلبان توقيعًا من موظفين لا يقل راتب كل منهما عن عشرين جنيهًا" وهو ما كان عائقًا أمام الأب الذي لم يكن يعرف أحدًا من أصحاب هذه الرواتب، وكعادته يسوق له القدر عمدة طنوب الذي تولى مهمة إعداد الشهادتين من مركز كفر الزيات عن طريق المأمور، لكن الركود الاقتصادي كان له رأي آخر، فصعوبة الحصول على عمل دفعت عبد الحكيم أفندي بشركة مصر للتأمين (وقد دله عليه أهل الخير ليساعده في إيجاد وظيفة له)، بأن ينصحه عندما رأى شهادته في الثانوية، وكان لديه ابن حاصل على 52 %، بأن يتوجه إلى مكتب التنسيق، قائلاً: "يا بني خسارة تضيع فرصة دخول الجامعة، دا أنت مكانك فيها مضمون"(*مشيناها خطى*، ص 29).

لا يسرد رؤوف عباس عن طفولة سعيدة، بل شقيّة وأي شقاء، فمع تهيئة الظروف للالتحاق بالجامعة إلا أن الأب عندما يعلم أنه قدّم للجامعة، يثور ثورة عارمة، وعلى الرغم من أن الابن حكى له ما دار من أحاديث بينه وبين عبد الحكيم أفندي، وأن الأزمة الاقتصادية التي ألمت بالبلاد، جعلت العثور على فرصة عمل أمرًا يحتاج إلى وقت طويل، لكن الأب كان يعلم ما أنّ بيده من نقود لا تكفي لمثل الشروع في الدراسة الجامعيّة، فراح يتحسبن في الابن الذي وضعه في مثل هذه الورطة، وأعلن عن تخليه عنه، وأنه لا شأن له به من الآن، وهو ما دفعه لأن يترك القرية في اليوم التالي ويعتزم السفر إلى القاهرة، بحثًا عمّن يقرضه من أقاربه حتى يجمع المبلغ المطلوب لرسوم دراسته، ومع الأسف لم يجد ترحيبًا من أحد، حتى مَن كان باستطاعتهم مساعدته منهم، امتنع بحجة عدم جدوى ذلك.

على غير عادة كتاب السيرة الذين يذكرون وهم يستعرضون للإخفاقات في حياتهم، ويتعرضون لمن أسهموا في هذا الإحباط، أو خذلوهم في المعونة، بالكتابة بنقمة عنهم، فعلى العكس

تمامًا لا نجد لومًا أو تأنيبًا أو حتى تفشيًّا، وإنما ذات متصالحة مع نفسها، تذكر تعاملات هؤلاء الأشخاص، كجزء من المسيرة لا أكثر، دون أن تكون الكتابة بمثابة الأنياب المتوحشة التي تقتص منهم، فقط هي كتابة ذات أنياب تُعري أناتها وتكشف مواطن ضعفها، ثم في النهاية تريد أن تنتصر، وتقول ها أنذا مع كل تلك المعوقات والظروف، فلا نراه يخجل أنه حصل على مجانية التعليم عبر البحث الاجتماعي الذي أقرته ثورة يوليو، وهو في هذا يقتفي أثر طه حسين في كتابته *الأيام* (نُشر مسلسلا في مجلة الهلال عام 1926، ثم في كتاب عام 1929)، فالأيام لم تكن عتابًا أو هجومًا على أحد، بقدر ما هي تسرية عن الذات وما حاقَ بها من أضرار عقب أزمة كتاب *في الشعر الجاهلي* (1926).

المسار الصعب الذي سلكه في حياته لم ينته عند حصول على الجامعة، فقد كان المسار الصعب هو مسار دولة بأكملها، فالأوضاع الاقتصادية في الدولة ككل كانت متردية، وآثار الركود منعكسة على سوق العمل "فكانت فرص العمل محدودة " ويحتاج الحصول عليها إلى وساطة، وكان التعيين في الحكومة مركزيًّا يتمُّ من خلال مسابقات ديوان الموظفين التي كانت تكلف المتقدم نحو العشرة جنيهات، ثم يتم ترتيب الناجحين، ويتم التعيين بالدور من بين الناجحين في المسابقة حسب الترتيب، ومن لم يصبه الدور في السنة المالية التي دخل فيها المسابقة عليه التقدم للمسابقة الجديدة" (*مشيناها خطى*، ص 32)، إضافة إلى أن "إعلانات ديوان الموظفين قاصرة على حملة الشهادات المتوسطة، فاضطر حملة المؤهلات العليا إلى التقدم إلى هذه المسابقات للحصول على وظيفة كتابية أو أملاً في تسوية أوضاعهم وفق مؤهلاتهم العليا فيما بعد" (*مشيناها خطى*، ص 32)، وهو الأمر الذي انعكس عليه، فلم يكن الطريق مُعبَّدًا له للحصول على وظيفة يُساعد من دخلها أسرته، فلم يوفّق في الحصول على فرصة العمل التي تعلّقت بها آمال أسرة كاملة.

حالة الشقاء التي كان عليها، لم تقتصر على طفولته البائسة، وإنما لازمته في مرحلة دراسته الجامعية، فالبحث عن عمل كان من الصعوبة بمكان، والذهاب إلى الجامعة هو الآخر كان محفوفًا بصعوبات شتى، ورحلات طويلة تمتد إلى مسافات طويلة يجتازها مشيًا على الأقدام، فكان يضطر إلى السير على الأقدام من الحامول إلى محطة منوف مسافة خمسة كيلو مترات للحاق بالقطار السريع القادم من شبين الكوم والمتجه إلى القاهرة.

أشار الدكتور رؤوف عباس في سيرته إلى المكائد التي تَحدُث في الجامعات المصرية، وما نتج عن هذه المكائد التي من اضطرار بعض العقول المفكرة والعلماء إلى الهجرة خارج مصر كما في حالة الدكتور عزيز سوريال عطية، الذي اقتلع من جامعة القاهرة ونقل إلى الإسكندرية، ليلمع

هناك ويكوّن مجموعة من أبرز المتخصصين في تخصص العصور الوسطى فأثار على نفسه غيرة زملائه فسمّموا الآبار أمامه، واضطر الرجل إلى الهجرة إلى أمريكا، وذاع صيته في الغرب وكوّن مدرسة كبيرة هناك. (*مشيناها خطى*، ص 34).

حالة الفساد التي استشرت في الجامعة لم تقتصر على نقل الأساتذة بسبب الغيرة والتنافس، أو حتى المكائد التي كانت تدبر للبعض بليل، أو وباء المذكرات والكتب الدراسية، وإنما شملت أيضًا مناهج التعليم، فينتقد مناهج التعليم المقررة في جامعة القاهرة، ويعتبرها : تقدم للطالب خليطًا من مواد من مختلف عصور التاريخ، وضعت تلبية لرغبات ومصالح أساتذة التخصص في كل عصر من تلك العصور، فتحدث مزاحمة بالمناكب من أجل زيادة حصة كل عصر على حساب الآخر" (*مشيناها خطى*، ص 35)

وفي سرده يُقدِّم وصفًا لحال الأساتذة وطرق شرحهم، بعضها ينم عن سخرية من مثل هذه الأفعال، كما يتحدث عن سوء معاملة الأساتذة وتصرفاتهم مع الطلاب، فيقدّم صورة مزرية للوضع التعليمي وحال أساتذة الجامعة إذْ ارتضى بعضهم أن يقوم بدور التاجر في بيع مذكراته وكتبه وتوزيعها على الطُّلاب، وهناك مَن تعامل بغلظة شديدة، على نحو ما فعل الأستاذ الذي كان يُملي دروسه أشبه بأساتذة اللغة العربية للطلاب بالمدارس الابتدائية، ولما لم يعجب رؤوف طريقته في الدرس، اكتفى بتسجيل النقاط الأساسية على أن يقوم بجهد إضافي بالبحث عن أصول الموضوع في المراجع الأجنبيّة، فلاحظه الأستاذ الذي كان من عادته أن يمرّ بين الطلاب ليشاهدما يفعلون، فلمح صاحبنا، فوبخه ولم يكتف بهذا بل قذف الكشكول في وجهه وطرده من الفصل. حالة الاشمئزاز التي كان يتعامل بها بعض الأساتذة مع الطلاب كانت نموذجًا متكرارًا بين أساتذة الجامعة، فيحكي عن الدكتور إبراهيم صبحي رئيس القسم، وأول عميد للكلية، الذي كان يتعامل بتأفف واشمئناط، فدائمًا في محاضراته يسخر من الطلاب بقوله "الجامعة برطشت"، كما كان يرفض من يسأله في المحاضرة والويل له، بل "يسرف في توبيخه، ويمسح بكرامته الأرض" (*مشيناها خطى*، ص 41). ولا يغفل الدور السلبي الذي لعبه الدكتور محمد أنيس معه على الرغم من إشادته برسالة الماجستير، ومساعدته على نشرها في الهيئة التي يرأسها محمود أمين العالم، فكان محمد أنيس – على الجانب الآخر – بمثابة العقبة أمامه في الترقي والتدريس داخل الكلية، بل كان يعاديه صراحة، ويرفض إعطاءه دروس تخصصه.

لا يعني وجود مثل هذه النماذج أنها هي السّائدة في الوسط الجامعي، فعلى العكس تمامًا قدم صورًا مبهرة لأساتذة قمة في العلم والتواضع والإنسانية، فيذكر الأستاذ أحمد فخري، وأيضًا

أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى ومحمد أنيس، ومحمد محمود الجوهري الذي قدم إصلاحات كثيرة عندما تولى عمادة كلية الآداب، وعندما نيط له الإشراف على فرع الجامعة بالفيوم، عمل على استكمال هيكله الأكاديمي، وبالمثل عندما أصبح رئيسًا لجامعة حلوان "قدم نموذجًا يحتذي لبناء جامعة من بين كليات ومعاهد متناثرة، ويضع هيكلها الأكاديمي، ويدعم هيئة التدريس بأكثر العناصر كفاءة" (*مشيناها خطى*، ص 116) وآخرين مدوا له يد العون، وكان نعم الأساتذة في الأبوة والنصح والإرشاد، والقدوة في العطاء والتفاني من أجل إصلاح الجامعة.

تسقط صورة الجامعة الحُلم التي كانت في خياله عندما يحتك بها كأستاذ ، فالمناخ الذي يهيمن ليس علميًّا وإنما هو صراعات وعداءات واستقطاب "فاهتمامات الأساتذة في جلساتهم الخاصة بالنميمة، وتناقل أخبار معسكر الأعداء داخل القسم هي السائدة، أما القضايا العلمية والمنهجية، فلم يجدها إلا في مجلس محمد أنيس، وكان ذلك نادرًا" (*مشيناها خطى*، ص 109)، الشيء المؤسف أن السلطة باستوزار الأستاذة، ساهمت في تآكل "استقلال الجامعة" نتيجة لما أشاعه هذا الفعل من تملّق الأساتذة للسلطة، كما إن الصورة السلبيّة التي قدّمها رؤوف عباس عن الجامعة لم تقتصر على صورة الأساتذة وعلاقتهم بالطلاب، بل يُقدّم ما هو أفدح، خاصة ما هو متصل بأساليب التعيين في الجامعة، فيحكي عندما نُشر إعلان عن حاجة كلية الآداب بجامعة القاهرة، لمدرس مساعد، ووجدها فرصة للتقديم، إلا أنه عندما أعلن لأستاذه أحمد عزت عبد الكريم، ثار ثورة عارمة، وعنفه، بأن الأمور لا تُدار بهذا الشكل، وكان الأولى أن يستأذن، وطلب منه في تصرف لم يقبله التلميذ، أن يسحب أوراق تقديمه، لأن الإعلان نازل لشخص آخر، وقد تبين الأمر له بعد ذلك، أن علاقات شخصية هي التي تحكم التعيين في الجامعة، وهو ما انعكس عليه، إذ شعر بـ"خيبة الأمل والمرارة" جرّاء ما يحدث.

كما كشفت السيرة عبر علاقات الأساتذة، عن صراع خفي ومعلن بين الجامعتين العريقتين، فأساتذة جامعة القاهرة تتملكهم عقدة استعلاء على جامعة عين شمس، والغريب أنه وجد الدكتور محمد أنيس الذي امتدحه أثناء مناقشة الماجستير، يحمل مثل هذا الشعور، فبعد أن قبل في وظيفة معيد في قسم التاريخ الحديث بكلية الآداب، طلب منه أن ينقل الإشراف إلى جامعة القاهرة مُتعلّلا باختلاف المستوى في جامعة القاهرة عنه في عين شمس، ولا بد من الاطمئنان إلى سلامة تكوينه العلمي حتى يعين مدرسًا بآداب القاهرة بعد حصوله على الدكتوراه، أما إذا حصل على الدكتوراه من عين شمس "فقد يظل معيدًا إلى الأبد" (*مشيناها خطى*، ص 58). كما ينتقد سياسة تعيين الأساتذة التي تتطلب بعد الحصول على الدكتوراه أن يَنْزِلَ إعلانٌ، ولم يكن الإعلان

إلا وسيلة –كما يقول – إذلال للطلاب، ومَن يحرص على كرامته، ويأبى التزلّف للأساتذة، فتمط الإجراءات لتستغرق شهورًا بالنسبة لوظيفة مدرس، أو يتمّ الإمعان في إذلال المعيد الذي يُعلن له عن وظيفة مدرس بتحريض بعض حملة الدكتوراه لمنافسته في الإعلان، وقد يُعين من الخارج، ويهدر حق المعيد في التعيين" (*مشيناها خطى*، ص 64) . إضافة إلى التلاعب في درجات الطلاب خاصّة الحاصلين على تقدير جيد جدًّا، لحرمانهم من التعيين كمعيدين في الكلية، وهو ما رفضه رؤوف عباس عندما أُنِيط له الأمر بتولي لجنة رصد الدرجات بعد إعارة رئيسها السابق إلى السعودية. كما كشف عن العنصرية التي أبداها البعض عندما عزم على انتداب الدكتور يونان لبيب رزف للتدريس، وحدثت العنصرية الدينيّة، وما بها من إقصاء عندما كان من بين أوائل الخرجين طالبة قبطية.

كما يفتح النار على بدعة الكتاب الجامعي والصناديق الخاصّة، وكيف استغلت هذه البدع على الرغم من أن الهدف من إنشائها هو الصالح العام، إلا أن الفساد كعادته، حوّلها إلى بؤرة للفساد والتربح من قبل ذوي الذمم الخربة، والضمائر الملوثة، فبدلاً من أن تستغل هذه الصناديق في دعم البحث العلمي، وتمويل المشروعات البحثية، أو دعم المعامل بأحدث الأجهزة، أو دعم النشاط الثقافي والرياضي للطلاب، استغلت في المنح والعطايا لبعض المحاسيب، وقد كان لرئيس الجامعة الحق المطلق في تحديد أرقام تلك المكافآت، ومنها ما يوزع بمسميات مختلفة من أجل تلميع صورة رئيس الجامعة على صفحات الصحف، وجزء منها يقدم على هيئة هديا عبثية لبعض الشخصيات التي يبني الجسور، وبصفة عامة كما يقول "والكثير من رؤوساء الجامعات يتعامل مع الصناديق الخاصة وكأنها إيراد العزبة يبعثره كيف يشاء" (*مشيناها خطى*، ص 117).

يستعرض في جرأة نادرة أشكال الفساد التي مارسها (بعض) العمداء في تسخير أموال الصناديق الخاصة، من أجل المجاملات التي كانت تتم أثناء مؤتمرات الحزب الوطني، عندما كان يُعقد في حرم الجامعة، فيقومون بـ"تجديد وترميم المباني وتجهيزها بالوسائل السمعية وتزويد المدرجات بأجهزة التكييف، ... ويتم إيقاف الدراسة بالجامعة لمدة أسبوع، وتعد المدينة الجامعية لسكني الأعضاء، فيتم تجديدها وتزويدها بوسائل الراحة التي حرم منها الطلاب، على حساب الطلاب أنفسهم من أموال الصناديق الخاصة" وهناك شكل آخر من أشكال الفساد قام بها العمداء، يتمثّل في "تجديد أثاث مكاتبهم".

صراحة الدكتور رؤوف جعلته يُصرّحُ بكل الأسماء التي وقفت عقبة في طريقه، وأيضًا الأساتذة الذين كانت لهم مواقف مشينة، فيذكر محمد أنيس، وكذلك حسانين ربيع ومواقفه من أستاذه لتعيين ابنته معيدة بالقسم، وإصراره على منح زملائه لها أعلى التقديرات، وبالمثل عبد العزيز

حمودة وكان عميدًا للكلية، وموقفه الجبان من قبول طالبة قبطية في القسم، ثم خوفه من ردة الأفعال بعد تقديم الدكتور رؤوف استقالة مسبّبة، وإصراره على تصعيد الأمر، وبالمثل يشير إلى الدكتور محمود متولي، ويصفه بأنه "من العناصر التي هوت التسلّق على كل تنظيمات الثورة" (*مشيناها خطى*، ص 99).

مثلما وجّه انتقادات كثيرة لزملائه من أساتذة الجامعة داخل أسوارها، يُقدِّم انتقادات لهم خارجها حيث المواقع التي عملوا بها، فيشن هجومًا شرسًا على عبد العظيم رمضان، ويتهمه بالسطو على جهد غيره، فرمضان كان يشغل مدير مركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب، فيقول عن جهده أنه خلال إشرافه على المركز لعدة سنوات "لم ينتج فيها شيئًا سوى ما كان ينشره من مذكرات سعد زغلول"، وينوه إلى دور أحد موظفي المركز (محمد حجازي) الذي كان يقوم بكتابتها يجتهد في قراءة النص، أما دور عبد العظيم رمضان فيقتصر على "كتابة مقدمة لكل جزء" ، وينسب له دوره السلبي في توقف السلسلة التي كان يشرف عليها يونان لبيب رزق بعنوان "مصر المعاصرة"، فكانت تنشر بحوثًا دون خطة محددة، كما أن علاقته بالباحثين كانت في غاية السوء، بسبب ترك معظمهم بلا عمل، وحرمانهم من بعض المزايا العينية لمجرد معارضتهم له في الرأي" (*مشيناها خطى*، ص 125).

عين السّارد اللاقطة لسلبيات الأكاديميين لازمته أثناء إعارته إلى قطر، فيرصد للكثير من المواقف المخجلة للأساتذة المصريين في تعاملهم مع أبناء الأسرة الحاكمة داخل الجامعة، حيث حالة التهاون في تصرفاتهم، وتزويدهم بالدرجات في مقابل الحصول على منافع شخصية متمثلة في عقود عمل لأقاربهم، وهو ما كان سبب استياء من أرباب العمل، لدرجة أن عميد كلية التربية أمام هذه الصغائر اضطر إلى "إلغاء إعارة اثنين من أعضاء هيئة التدريس" (*مشيناها خطى*، ص 88).

ومن لحظة دخوله قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، يبدأ في تقديم رؤية متكاملة عن الأجواء داخل القسم، والصراعات، والأحزاب التي يتألف منها القسم، وجميعها كما يقول "لا علاقة للعلم ومدارسه بها، بل كان العلم لا يظهر عل السطح إلا لخدمة غرض شخصي إن إيجابًا أو سلبًا. ولكن البحث العلمي، والمنافسة في مجاله، كانت بعدًا غائبًا في ذلك القسم" فالقسم ما يسيطر عليه "أحقاد وإحن وصراعات قديمة بدأت بين جيل الرواد، أورثها كل منهم لتلاميذه الذين أجادوا الزلفى والملق حتى يستطيعون الحياة في ذلك المناخ غير الصحي، فالويل كل الويل لمن يكتشف أستاذه أن له صلة بمعسكر خصمه، كما يحدث في الخصومات السياسيّة، كان كل طرف يقرب إليه من ينقل أخبار الطرف الآخر، وأجاد بعض هؤلاء لعبة العميل المزدوج حتى يضمن من

مساندة الجميع له بحسبانه من أتباعهم، فإذا كشفت لعبته كان ذلك نهايته" (*مشيناها خطى*، ص 58).

ومن الأمور المدهشة والمؤسفة في آن، ما يستعرضه رؤوف عباس بشأن أسئلة الثانوية العامة في التاريخ، فعندما اعتذر عن المشاركة لضيق وقته، طلبوا منه ترشيح مَن يثق فيهم، فرشح يونان لبيب رزق، فقوبل طلبه بالرفض لأنه قبطي كما أشار له محدثه،بأن هناك تعليمات عُليا تمنع هذا، ثم ذكر له اسم عاصم الدسوقي، فقوبل الآخر بالرفض، لأنه تسبب في مشكلة في امتحان أحد الأعوام عندما ذكر اسم فلسطين في الامتحان، وهو ما سبب حرجًا لمروجي التطبيع، هكذا يكشف رؤوف عباس بسلاسة وإنسيابية دهاليز السياسة التي سيطرت على كافة مناحي التعليم، حتى غدت السياسة هي المحرك الرئيسي الخفي لكل أمور الحياة، بل تتدخل في مصائر الطلاب. تدخل السياسة لم يقتصر على حرمان الأقباط من وضع امتحانات الثانوية، وإنما وصلت فداحته لمحاولة البعض من العمداء لتزليل العقبات أمام حرم الرئيس وبناته، من أجل الحصول على الدرجات العلمية، فيشيد بموقف الدكتور حسن حنفي الذي اعترض على منح جيهان السادات تقدير امتياز وهي أصلا لم تحضر إلى قاعات الدرس، في المقابل هناك من وافق وسعى أن يعمل نخاسًا، يطلب من رؤوف عباس كتابة رسالة الماجستير إلى ابنة السادات، وهو ما رفضه، بل وجه للعميد أقسى عبارات اللوم. وهناك طه ربيع مدير إدارة الأمن بوزارة التعليم العالي، مارس نفوذًا على الجامعات يفوق سلطات الوزير نفسه.

يكشف عباس وهو يستعرض لمآل الجامعة المنحدر إلى الهاوية بسبب سياسة المجاملة على حساب الكفاءة العلمية، رغبة في نيل ذهب المعز – السلطة، فيكشف عن الألاعيب والحيل التي مورست من قبل رؤوساء جامعة القاهرة، وعمداء كلية الآداب، من أجل تذليل العقبات للسيدة الأولى، التي فتحت الأبواب على مصراعيها، كي تدرُسَ في الجامعة وتتفوق وتحصل على الماجستير والدكتوراه وتعين، بل يصف ما هو أبشع من مهانة بعض الأستاذة الذين تنازلوا عن كرامتهم في سبيل استقبال السيدة الأولى أثناء إلقاء محاضراتها، بإعداد القهوة لها وتقديمها لها، وهو ما كان له نتائجه الإيجابية بالإرسال كمستشارين ثقافيين في الدول الأوروبية، وغيرهم الذين تكالبوا على عتبات باب السيدة للحصول على مكافآت وشقق وفرص عمل لأقاربهم، كل هذا نبش في تاريخ الجامعة وهو ما جعل ردة الفعل عنيفة بعد صدور الكتاب، فالرجل كان يكتب بأنياب جارحة، لم يهادن أو يجامل أو حتى يتغاضى عن ذكر الأسماء، بل كان صريحًا صراحة صادمة للكثيرين ممن قرأ السيرة أو الاعترافات.

ومن أبرز الأمثلة على حالة النفاق التي سادت الوسط الجامعي تلك الحكاية التي يسوقها كدليل كاشف على حالة الامتهان والإذلال التي وصل إليها الأستاذ الجامعي من أجل الحصول على منصب سياسي، أنه عندما اختاروه عضوًا في اللجنة المشكلة لإعداد لاحتفالية ضخمة بالعيد التسعين لجامعة القاهرة، ضمت اللجنة معظم عمداء الكليات ونواب رئيس الجامعة وبعض وكلاء الكليات، إضافة إلى بعض الأساتذة الذين لتخصصاتهم علاقة بالاحتفالية، فأثناء عقد اللجنة التي كانت تعقد مرتين برئاسة رئيس الجامعة، وأثناء إحدى اللجان عرض على رئيس الجامعة أسماء من تولوا رئاسة الجامعة السابقين، لتكريمهم بهذه المناسبة، وعندما تفقد رئيس الجامعة القائمة، ووجد أمام أحمد لطفي السيد اسمه مجردًا من لقب الأستاذية، صاح بأنه أمسك بغلطة، وهو ما أصاب الجميع بالانزعاج، ثم أعلن خلو اسم أحمد لطفي السيد من لقب أستاذ دكتور، لكن الدكتور رؤوف يعترض قائلاً إن أحمد لطفي السيد لم يحمل الدكتوراه، ولم يحصل على درجة أستاذ، عندئذ ضحك رئيس الجامعة، وضحك الجميع لضحكه، وقال ساخرًا : "يعني عملوه مدير جامعة لأن ما كان عندهم غيره!!" (*مشيناها خطى*، ص 115). هذا الموقف على سذاجته لكنه يكشف جهلاً كبيرًا ممن يفترض أنه رئيس جامعة، وثانيًا يعكس نفاقًا من الجالسين حوله، فما إن شرع بتصحيح الخطأ، حتى بدأ الجميع يشرعون أقلامهم للتصحيح والإضافة.

انتهت المقالة إلى أن سيرة رؤوف عباس *مشيناها خطى* (2004)، التزمت معايير الميثاق السّيريّ الذي وضعه الفرنسي فيليب لوجون، كما أنها سيرة لم تقف عند ذات صاحبها (أو أسرته)، وما عانته من صعاب ومحن في سبيل تحقيق أهدافها، وإنما هي سيرة وطن، تعرض للفساد في أهم مفصل من مفاصله وهو الجامعة، رصدت عبر سيرة الإنسان سيرة التحولات الاجتماعيّة والاقتصادية التي مرت بها مصر، في النصف الأول من القرن العشرين، ثم الحدث الثوري المهم، المتمثل في ثورة 1952، ونتائجها الإيجابية على مستوى العدالة الاجتماعية، وإتاحة التعليم للجميع، وهو ما استفاد منه قطاع عريض من الشعب، كان التعليم بالنسبة له حلمًا، ومن ثمّ كأنّ السيرة بطريقة غير مباشرة تجيب عن سؤال اللحظة: ماذا حدث؟ وما أسباب التغيير؟ وانتشار الفساد بهذه الصورة في واقعنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. السيرة إجابة عن سؤال: لماذا أصبحنا هكذا. المثير حقًا في هذه السيرة أنها سيرة شاهد عيان، مراقب لكافة التحولات وابنا من أبناء الحلم الثوري، ومن ثم فكل ما جاء فيها بمثابة شهادة حيّة على أحداث ووقائع مهمة مرت بها مصر عبر تاريخها الحديث.

وبقدر ما توقف رؤوف عباس عند السياقات الاجتماعية والاقتصادية التي نشأ فيها، ومحاولاته الحثيثة للخلاص من هذا الواقع ومجابهته بالتعليم والحصول على شهادة تضمن حقه في الحياة، ففي الوقت ذاته عبّر عن الآليات المحبطة التي يمكنها أن تقضي على أي طموح، وتجتث الأمل من جذوره. وقد جاءت السيرة عبر وسيط لغوي متماهٍ مع ذات الكاتب الجريمة والمتألمة، كما كشفت السيرة عن جدلية السياسة مع العلم، وكيف كان لتأثيرات السياسة الخاطئة من أثر سلبي على المسار العلمي، بل كانت من أهم أسباب تراجع العلم وانحدار مستوى الخريجيين.

المصادر والمراجع

الحموي، ياقوت. معجم *الأدباء*. ج 1، ط فريد الرفاعي، دار المأمون، 1936.

العقاد، عباس محمود. *أنا*. دار نهضة مصر، ط 3، 2005.

لالطاهر أحمد مكي، *تمدمة طوق لحامة* ،القاهرة: لهايئة العامة لقصور الثقافة, 2023